أذلّ أم مــروق ؟!

بهاء الدين الأيوبي

نعيش في مدينتنا القدس حياة شقاءٍ وبؤسٍ فلا نشعر بالأُنس ولا نعرف للراحة طعماً ، وإن لم يكن هناك ما يُتعب الجسم ، ولكن لا يوجد ما ترتاح إليه النفس ، ولم يكن ذلك لقلّة الأعمال ، فالعمل يؤمّنه المجدّ ، والمسلم لا يعرف إلى الجد ، ولا لقلة المال ، فالمال يحصل عليه النشيط ، والمؤمن لا يعمل إلا بنشاطٍ وإتقان .

وقد يعز طلب المال ولكن المرء يجد بالقناعة والرضا ما يُغنيه عنه ، و « **لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » متفق عليه ، كما قال رسول الله ﷺ . وقد يصعب الحصول على المستلزمات غير أن الإنسان يجد من إخوانه ما ينسيه .

إنّ الذي يحز في النفس فيترك فيها جراحاً لا تندمل وآثاراً لا تزول تسلط عدو لئيم ، أو تحكم خصم زنيم يفرض أحكامه ، ويبسط سلطانه ، والناس مقهورون لا يملكون قول كلمة ، ولا يستطيعون حــديثاً ، يعمــل علــى وأد عقيدتهم ، ويبعد عنهم لغتهم ، ويجبرهم على لغته ، والحديث بحديثه . وربما كان أقتل داء من هذا وذاك رؤية العــين من يتغطرس ويمدح من بعض أهلك ، ويُجرم ويُثنى عليه من أقربائك ، ويسيء ويتلى في محافل إخوانــك حمــدُه ، ويعمل على ذلك ، وعلى كسر شوكتك وهم يرجون عطفه والسلام معه !!

وإنَّ أشدّ ما يفتت الكبد ويتلف الأعصاب رؤية الرجل الحاني ولده الوحيد ، وطفله البريء وفتاه المؤمن يــذوي جسمه تدريجياً ، ويهزل جسده هماً وغماً ، ويخرج شذا روحه من بدنه ، أو يعيش وراء القضبان لما فيه من مــروءة وإيمان وما يسري في جسمه من نخوة وإيلام من حبه لعقيدته ، وانقيادٍ لمبدئه ، وفداء لأهله ، ودفاعٍ عن دياره ، وهو بعد ذلك لا يستطيع رؤيته ولا يمكن أن يقدم له شيئاً سوى عبرة يسيل معها سواد المقلتين مداداً ، يرسم أثر حزنــه على خديه ليبقى معلماً ما عاش .

إنّ هذا كله نعيشه في قدسنا الحبيب ، بل هي التي تعيشه حيث ترى جميع ما يجري فيها وما يحدث في أرجائها ، وما يقع في تلك الجهات من الأرض ما يجري فيها وما يحدث في أرجائها ، وما يقع في تلك الجهات من الأرض التي بارك الله فيها ، على حين لا يرى أحدنا إلا ما يصيبه وحده وأهله وينسى ما حوله ، ولو تستطيع قدســنا الكــلام لقالت : من تخلى عن عقيدته من المسلمين ضيعه الله ، ومن ضيعه الله فلا ولي له ولا نصير ، فقولوا هذا وأعلنــوه ، وأسمعوا إخوانكم في بقية البلدان قبل أن يحل بهم هذا المصير .

لقد أصبح أهل القدس لا يستطيعون فعل شيء ، وتزهق أرواح المؤمنين منهم هماً وغماً ، وإخوانهم في منأى عنهم يرضون بالضعة ، ويقبلون الذل ، ويرتمون على الأقدام يرجون العفو والسلام ، ويطلبون التقرب والوئام من قـــاتلي إخوانهم ومشرديهم وسارقي ديارهم .

ومما نعيشه في قدسنا ويكاد يقطع شغاف قلوبنا ويبتر نياطها ، رؤية الأماكن والآثـــار الإســـلاميّة في وضـــعها البئيس ، وقد ابتعد عنها أتباعها أو تخلوا عنها ، وكأنها تناديهم : أيها المسلمون حافظوا عليّ ، وارعوا عهدي فإن في ذلك مجدكم ، وإنّ عزّكم في التزامكم ، ومن نصر الله نصره ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

ومما يحز في النفس ويقض المضجع رؤية تخلي اللغة العربية عن مكانتها وإحلال غيرها مكانها ، تقليـــداً ومحاكـــاً أحياناً ، وضعة وهواناً أخرى ، وضعفاً ومحاولة إبعاد الشبهة عن الانتماء للأمة ، والارتباط بالعقيـــدة ، والاعتـــزاز بالتاريخ ، فالعربية على صلة وطيدة بالإسلام ، ومحاربتها حرب عليه ، وأول أسلحة الهجوم عليه إنما هـــي محاربـــة اللغة ، وبداية الابتعاد عنه ترك العربية واتخاذ غيرها وسيلة للتفاهم ، ومجالاً للتخاطب ، وإن الذين خططوا للنيل مـــن الإسلام قد صوبوا سهامهم على اللغة ، فمنهم من زعم صعوبتها ، واقترح اتخاذ العامية وذلك لتجزئة الأمة وإبعادها عن كتابتها ، ومنهم من اقترح استعمال الحرف اللاتيني للخلاص من الشكل –حسب زعمه– للسير بعيداً عن القرآن و .. إنها لغة القرآن ، وإن التخلي عنها إنما هو التخلي عن المنهج الإسلاميّ .

كنت أتصور أن الحكم الأجنبي هو سبب هذا كله ، في محاولة منه لمحاربة الإسلام ، فعمل على فرض لغته ونشر ثقافته وترسيخ أفكاره ، وبث المفاهيم التي يريد تعميمها . لذا كنت أتمنى الخروج إلى بلاد لا أثر للكافر فيها حيـــث يصعب علي رؤية احتضار لغة عقيدتي ، ولعلي أشعر بعبيق لغتي مزدهرة في ربوع مهدها ، وموطن انطلاقها ، إذ ليس للأجنبي أثر بل لم يدنس تلك المواقع .

وشاء الله أن أخرج ، وكم كانت المصيبة ثقيلة علي ، بل كانت فاجعة بالنسبة لي ، حيث وجدت اللافتات بلغة المستعمر تملأ الشوارع ، واللوحات باللغة نفسها تغص بها الأسواق ، ووجدت رطانة في حديث الناس وسمعت لكنة أعجمية في كلام السكان ، وكان الألم موجعاً والواقع قاسياً ، وخاصة عندما أخبرني أحدهم أن هذا يزداد يوماً بعد يوم ، وأن الأمر لم يجر تلقائياً ، بل تحت تأثيرات أجنبية وضغوط ، وتوجيهات محلية وشروط ، ورغبات ســـلطوية ، إشارة إلى التبعية والارتباط ، وعدم التعصب والسير في ركب التيار الدولي ، والابتعاد عـــن الشخـــصية الإســـلاميّة المتميزة ، ورجعت إلى موطني البئيس وكلي أسى وحزن ، لا أدري أهذا تبعية أم خضوع ؟ أم ضعة وخنوع ؟ وقـــد تبين أخيراً أنه ذلّ وعقدة نقص ومروق .